

الشيخ أحمد زروق البرنسي

نموذج تصوّفٍ ومُتصوّفٍ مغربي مهاجرٍ زمنَ العصرِ الوسيط

د. عبد السلام انويكّة

أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
فاس - مكناس - المملكة المغربية



مُلخّص

كانت بلاد المغرب منذ العصر الوسيط بدور هام للعلماء، لما كانوا عليه من تشارك وأسهموا به من تفاعل في توجيه المجتمع سواء بالمدن أو البادية. وقد بدأت مكانة العلماء بالمغرب على تباين اهتماماتهم وفق ما كان عليه جامع القرويين بفاس من تطاير وتكوين، تظهر بشكل معبر منذ العصر الوسيط وكان لهم شأن في أمور الدين والفقه والتصوف فضلاً عما هو تشارك في السياسة والمجتمع، ولعل من هؤلاء الشيخ أحمد زروق الشهير بمحتسب العلماء والذي عاش خلال القرن التاسع الهجري. وكان "زروق" هذا بتميز وتفرد صوفي وبتأليف واسع في مجالي الفقه والتصوف، مستفيداً من تعدد من أخذ عنهم من شيوخ العلم إن بالمغرب أو المشرق خلال هذه الفترة. التي اعتبرت من أشد فترات تاريخ المغرب حرجاً وصعوبة، حيث أواخر دولة بني مرين وما حصل من تدهور وعدم استقرار سياسي، كذا ما تعرضت له البلاد من غزو أجنبي برتغالي وإسباني، ومن تهجير للمسلمين من الأندلس وطردهم من غرناطة إلى المغرب حتى سقوط الخلافة بها ١٩٧هـ. أما مجتمعياً واجتماعياً فقد عاش "زروق" في زمن كثرت فيه الزوايا، كمؤسسات عملت على نشر المعرفة ومحاربة الفواحش والبدع وغيرها. وعليه، ازدهر الفقه والأصول والتصوف، وكانت الزوايا من العناصر الأساسية التي بلورت شخصية "زروق" وغيره من علماء البلاد خلال هذه الفترة. أما علمياً فقد تميزت فترة هذا الصوفي بازدهار الفكر على إثر ما حضي به العلم والعلماء من حفز رسمي، وما أنشأ من دور العلم وخزانات الكتب وما كانت عليه فاس والقرويين من دينامية وتفاعل بالمغرب. كلها شروط ساهمت مجتمعة في توجيه بداية ومسار شيخنا، الذي اختار التلاحق بين أقطار البلاد الإسلامية من مغرب ومشرق، واختار الهجرة لبلورة منهج فكره وطريقته في التصوف، فكان نموذج الصوفي المغربي المهاجر الذي جعل من مصراته مستقراً له ولزوايته التي اشتهرت بـ "الزروقية" شرقاً وغرباً.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ نوفمبر ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ١٣ مارس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الشيخ أحمد زروق، تازة، التصوف المغربي، البرانس، المتصوف المهاجر، جامع القرويين، مصراتة، الزاوية الزروقية

DOI 10.12816/0055853 معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام انويكّة، "الشيخ أحمد زروق البرنسي: نموذج تصوّفٍ ومُتصوّفٍ مغربي مهاجرٍ زمنَ العصرِ الوسيط". - دورية كان التاريخية، - السنة الثانية عشرة - العدد الخامس والأربعون، سبتمبر ٢٠١٩، ص ١٥٤ - ١٦٢.

مُقَدِّمَةٌ

"تلوان" غير بعيد عن وادي لحضر وعليه يقال له الحضاري تارة والبرنسي تارة أخرى.^(٣) بقي بعد وفاة والده بين يدي جدته الفقيهة أم البنين، حتى بلغ العشر سنوات فحفظ القرآن وتعلم الخرازة.^(٤) وهو ما أورده في كناشته مشيراً لحدث فقدانه لوالديه في أسبوعه الأول من حياته.^(٥) وقد عاش زروق هذا في أواخر دولة بني مرين وكانت فترة تدهور وعدم

أحمد "زروق" هذا صوفي مغربي شهير بالمغرب والمشرق عاش خلال القرن التاسع الهجري، فقيه وولي صالح بتأليف واسع جمع بين الفقه والتصوف. ولد بفاس ٥٨٤٦هـ وفيها أخذ عن شيوخها.^(١) عُرف ولقب بزروق لأن أباه كان أزرق العينين،^(٢) يعود أصله لقبيلة البرانس قرب تازة بالمغرب الأقصى تحديداً، قرية

في الفتنة التي عصفت بفاس ٥٨٦٩هـ، بعدما أفتى بخلع السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني.^(٨) وكان هذا الأخير قد لجأ لسياسة ضريبية مجحفة لتجاوز أزمة البلاد المالية، إلى جانب عدم استثناءه للشرفاء منها عين يهوديين^(٩) تجاوزا حدود ما كلفا به في تدبيرهم لهذه العملية، فصدر منهما ما أثار غيرة المجتمع وعلماء فاس ومنهم خطيب القرويين عبد العزيز الورياغلي، الذي أغرى الناس بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق المريني. وهو ما انتهى بذبحه بفاس بعد عودته من حملة بلاد الهبط في رمضان ٥٨٦٩هـ.^(١٠)

وقد عاشت البلاد وضعاً سياسياً غير مستقر، لما تسبب فيه بنو وطاس بعدة جهات من البلاد خلال هذه الفترة. ونظراً لما ترتب من أزمة مالية تم فرض سياسة جباية مجحفة، أغضبت أعيان فاس ومنهم خطيب القرويين الفقيه الورياغلي السابق الذكر كأحد أفراد الزاوية الجزولية. وقد وجدت دعوة هذا الأخير وتحريضه على قتل السلطان، معارضة قوية من الشيخ زروق لدرجة أنه رفض الصلاة خلفه في رمضان ٥٨٦٩هـ.^(١١) الأمر الذي يتضح منه ما كان للقرويين من دور هام في حياة مغرب العصر الوسيط السياسية، خاصة ما يتعلق بمسألة البيعة التي كان يقدمها علمائها للسلطان أثناء توليته الحكم. بحيث لما كانت تضرب أحوال البلاد لسبب من الأسباب، كانت القرويين تتحول إلى وجهة للرأي والمشورة والاستقطاب بناء على ما كان يصدر بها من فتاوي في عدد من القضايا.^(١٢)

وكان أول سفر للشيخ زروق خارج البلاد قد ارتبط بوقائع فاس وتطوراتها، ولعله كان فاعلاً سياسياً خلال هذه الفترة لشهرته ومكانته في المجتمع الفاسي، وليس من السهل معارضته للفقيه أبي فارس الورياغلي في الرأي ورفض الصلاة خلفه بالقرويين، مع أهمية الإشارة إلى أن موقف زروق هذا لم يكن خدمة للسلطان إنما أساساً من أجل سلم ومسالمة صوفية لتجنب سفك دماء المسلمين، وكان على الشيخ زروق تحمل نتائج موقفه واتهامه باليهودية. حيث قال: "أول خروجي من البلد (فاس) قال رجل من البلد لآخر هذا من يهود فاس.. فسمعهما طالب يعرفنا فنارعهما، ثم لما كان الليل دخلنا مسجداً بعد صلاة المغرب لنبيت فيه عاذا بأصحابه يتحدثون بنا معتقدين أنني يهودي، فإذا شيخ منهم يعرفنا قال: هذا طالب اعرفه من فاس.. فأتينا دار ابن مشعل أنا وصاحبي فتركني في الوادي ومشى وأردت الطلوع إلى الدار فزين لي..

استقرار سياسي، بحيث أصيبت البلاد بنكبة احتلال البرتغاليين لسنة ٥٨١٨هـ ومعها مدن محيطية. بينما قام الإسبان بتهجير أهل الأندلس وطردهم من غرناطة إلى المغرب، هذا إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية بالأندلس ٥٨٩٧-١٤٩٢م. أما اجتماعياً فقد كثرت الزوايا خلال هذه الفترة لنشر الفكر والمعرفة وممارسة الفواشش والإلحاد والزندقة والبدع، وعليه فقد ازدهرت الحياة العلمية خاصة الفقه والأصول والتصوف، ولعل الزوايا هي التي كونت وبلورت شخص أحمد زروق وغيره من علماء هذه الفترة.^(١)

وعلى عكس ما هو سياسي في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري، كانت الحياة الفكرية والعلمية على درجة من العطاء لما حضي به العلماء والعلم من تحفيز وتشجيع من قبل السلاطين. من خلال تشييد الخزانات العلمية وتزويدها بالكتب وتشجيع طلبة العلم. وقد ظهرت فاس كمركز إشعاع علمي وباتت قبلة للطلبة والفقهاء بالغرب الإسلامي، بحيث من المدارس التي اشتهرت بها نجد مدرسة الحلفاويين التي تدعى مدرسة الصافرين كأول مدرسة بناها بنو مرين بفاس، ثم مدرسة الصهرج وتعرف بمدرسة مسجد الأندلس ثم مدرسة العطارين والمدرسة البوعنانية والمصباحية.^(١٣) ولعله الإطار العام السياسي والثقافي والعلمي الذي طبع بداية ومسار القصب الصوفي الشيخ أحمد زروق، الذي اختار التلاقح بين علماء المغرب والمشرق لهذا العهد واختار الهجرة لبلورة منهجه وطريقه في التصوف، هذا قبل اختياره لمصراة مستقرًا له خدمة لزاويته التي اشتهرت بـ "الزروقية".

أولاً: الشيخ زروق بين أصول فكره الصوفي وتدافعه العلمي بجامع القرويين وأول سفر له

استمد زروق ثقافته العلمية والصوفية من عمق ما هو فكري وروحي طبع وميز فاس خلال الفترة الأخيرة من زمن دولة بني مرين. وكان الشيخ محمد بن قاسم مفتي فاس حينئذ والذي توفي عام ٥٨٧٢هـ، هو من وجه ثقافة أحمد زروق الصوفية وأبلغه بأحوال الفكر الصوفي في تاريخ التصوف المغربي. فكان مرجعه الأساس الذي تقاسم معه قضايا المجتمع ومشاكله وكثير من أحكام الشرع والفتاوي. وعلاقة زروق بالقروي كانت بعاقبة خطيرة عليه في سيرته ومساره، نظراً لما كان لهذا الأخير من دور وأثر قوي

وعليه فقد نعت بمحتسب الأولياء والعلماء الصفة التي لم يظفر بها غيره لا من قبله ولا بعده. والمحتسب القائم بالحسبة هو ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يشمل كل الوظائف الشرعية بما في ذلك الخلافة والقضاء.^(١٩) وورد أن شيخنا توجه للحج عام ٧٧٥هـ وأقام بمصر بعض الوقت أثناء عودته منه، وأخذ عن بعض شيوخها ومنهم الحافظ السخاوي وأبو العباس الحضرمي. وفي ٨٧٧هـ انتقل من مصر إلى بجاية بالجزائر التي التقى فيها بعدد من الشيوخ المشاركة، وفي ٨٨٠هـ عاد لفاس لتحدث له فجوة مع عدد من شيوخها، فغادرها بعد أربع سنوات، قاصداً بجاية ثم مصر قبل استقراره بمصراتة بليبيا عام ٨٨٦هـ.^(٢٠) وكان الشيخ زروق خلال هذه الفترة قد رسم وأخذ خطه الصوفي الإصلاحية، بحيث عندما وصل إلى بجاية بالجزائر حارب البدع، وألف كتابه الشهير "قواعد التصوف" ثم "أصول الطريقة" لضبط التصوف وتصحيح صورته.^(٢١)

والشيخ زروق كأحد مشاهير صوفية زمن بني مرين بالمغرب الوسيط، هو إمام عالم وفقه محدث صوفي متضلّع، وولي صالح بتصانيف ومناقب حميدة وفوائد عديدة. أخذ عن شيوخ متميزين من أكابر عصره ومنهم إبراهيم التازي، زار مصر وأخذ عنه الكثير وقيل إنه كان يحضر درسه بالأزهر زهاء ستة آلاف فرد، وعندما دخل مصر قادماً من فاس اتصل بالشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي، الذي بشر أصحابه بقدمه قائلاً لهم "قوموا تلتقوا إياكم". وللشيخ زروق تأليف ورسائل عديدة يميل فيها للاختصار مع التحقيق والإفادة ولا سيما التصوف وطريق السلوك، وشرح على رسالة ابن أبي زيد وشرح إرشاد بن عسكر وشرح مختصر خليل، والنصيحة الكافية والقواعد في التصوف وكتاب عدة المريدي وغير ذلك كثير من التأليف.^(٢٢) ولعل شيخنا كان عظيماً متضلّعاً في العلوم عميقاً في استخراج الحقائق والتفوق على غيره، فهو بحق محتسب العلماء كما قيل عنه.^(٢٣)

ثالثاً: بعض من شيوخ "أحمد زروق" عن بلاد المغرب والمشرق

ولفهم سبل وكيفية تبلور شخصية الشيخ زروق العلمية، من المفيد ذكر من تتلمذ على يدهم وأخذ منهم وفي مقدمتهم نجد خاله أحمد بن محمد الفشتالي الذي كان عارفاً بالفقه وغيره.^(٢٤) ثم عبد الله بن محمد بن قاسم القوري (ت. ٨٧٢هـ)، وأحمد بن

فمشيت عليه وفيه دار اليهود فلما رأوني قالوا: هذا ولد شيخ تازا، وكانوا سمعوا به أنه هرب خوفاً من الأخذ. فبعثوا ولد شيخهم يلقاني فلما رأني قال: كان ما هواش ثم عقبني ومشى إلى ديارهم، فإذا هم على الأبواب ذكوراً واناثاً كباراً وصغاراً، فما رابهم إلا دخولي للمسجد فقام عندهم ضجة وكلام.^(٢٥) ولعل هذا يلغي تهمة اليهودية عن شيخنا، وإلا بماذا نفسر استعداد اليهود لاعتباره واحداً منهم وفق ما جاء في روايته.

ثانياً: الشيخ زروق وقدر التنقل بين المغرب الأقصى والأوسط والأدنى ثم ليبيا ومصر

عاش "زروق" البرنسي الأصل الفاسي النشأة نهاية دولة بني مرين وبداية دولة بني وطاس، متنقلاً بالبلاد الإسلامية بين فاس وتلمسان وتونس وطرابلس.^(٢٦) أولى رحلاته كانت إلى تلمسان ٨٧٠هـ، ولعلها جاءت إثر فتنة فاس ورفضه لما صدر عن أستاذه أبي فارس الوريغلي حول خلع سلطان البلاد. أما الثانية التي قادته إلى بيت الله الحرام ٨٧٣هـ فأثناء العودة منها قضى مدة بالقاهرة للأخذ عن شيوخها، أما الثالثة فكانت إلى تونس طلباً للعلم والأخذ عن كبار علماءها، أما الرابعة فكانت لبجاية بينما الخامسة فكانت للقاهرة ٨٨٤هـ، أما السادسة فكانت لمصراتة التي استقر بها، وكانت الأخيرة منها والسابعة للحج ٨٩٤هـ.^(٢٧) وقد توفي بمصراتة بليبيا في ١٨ صفر ٨٩٩هـ الموافق لـ ٢٨ نونبر ١٤٩٣م.^(٢٨)

وكان زروق قد غادر المغرب لأول مرة دون أهله تاركاً زوجته فاطمة وابنيه بفاس، وهو ما يعني أن خياره لمغادرته البلاد كان أمراً مستعجلاً، ولم يتمكن من شمل أسرته إلا عام ٨٩٢هـ مقتصراً على انتظار زوجته وابنيه في الجزائر دون دخوله للمغرب. وحتى بعد وفاته ومغادرة ابنه لمصراتة الليبية باتجاه المغرب، فقد توقف في القسنطينة الجزائرية حيث تم استقرارهما النهائي.^(٢٩) ولا تزال سلالة الشيخ زروق بقرية سيدي زروق ببلاد القبائل بالجزائر.^(٣٠) مع أهمية الإشارة إلى أن الشيخ زروق بعد رحلته الأولى للمشرق عاد إلى فاس متمسكاً بأراءه في الإصلاح تجاه الفقهاء والمجتمع، وما لقاء بعض فقهاء مدينته ومجادلته لهم حول اعتمادهم في عيشتهم على الوقف المحبس على الموتى، إلا دليلاً على ذلك عندما قال لهم أنهم يعيشون من لحوم الموتى.

العلمية في سلوكه وإقباله الكثير على التأليف، وفي مخاطبته للنخبة ولعمامة الناس.^(٣٠) فأباً الحسن الشاذلي لم يترك كتاباً يحتوي أصول طريقته ومعالماً، بل فقط أجزاءً اعتنى أتباعه بشرحها وتوضيح معالمها. ولعل الشيخ زروق أول من اعتنى بوضع أصول الطريقة الشاذلية، من خلال كتابه "أصول الطريقة وأسس الحقيقة"،^(٣١) وقيل عنه أنه آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلم الحقيقة والشريعة.^(٣٢) ويفسر بعض الدارسين قلة أتباع الشيخ زروق، بعدم مبالاته بجمع الناس حوله وابهارهم بكراماته وخوارقه، بل كان ينتقد تصرفاتهم غير اللائقة لأهل التصوف في عصره، فالفكر الزروقي كان في أعلى مستواه علماً وفضاء دون أن تقترب له الشوائب، ولهذا فقد كان يقتصر على الخاصة.^(٣٣)

رابعاً: الشيخ زروق بين التأليف والإصلاح والتصوف

والحديث عن شيخنا ضمن حركة إصلاح ديني خلال مغرب النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، يقتضي الالتفات لما خلفه من مادة فكرية صوفية غزيرة في هذا المجال بحوالي المائة تصنيف معظمها لا يزال مخطوطاً، جمعت بين التفسير والحديث والفقه والتصوف وعلم الكلام والحروف^(٣٤) والرحلات والرسائل ووصايا وذكر وشعر.^(٣٥) ومعظم ذخيرة شيخنا المخطوطة هذه تتوزع بين مكتبة الاسكوريال باسبانيا ودار الكتب الوطنية بمدريد والمتحف البريطاني وجامعة برنستون الأمريكية. كذا بين خزانة كتب السلمانية باستنبول بتركيا وجاكرتا باندونيسيا والهند ببومباي، ومنها ما يوجد بألمانيا وبالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس وبالفايتيكان وبريطانيا وايرلندا وبولندا ثم بالرباط والجزائر وتونس والقاهرة وطرابلس بليبيا.^(٣٦)

ولشيخنا تأليف عدة نذكر منها "شرح الرسالة" و"شرح الإرشاد" و"شرح مواضع من "مختصر خليل" و"شرح القطبية" و"الوغيسية" و"العقيدة القدسية" للغزالي. وهناك أيضاً حوالي عشرين شرحاً على "حكم ابن عطاء الله" و"حزب البحر" و"مشكلات الحزب الكبير" و"حقائق المقرري" و"الاسماء الحسنى"، وله شرح "المرصاد" لشيخه ابن عقبة و"النصيحة الكافية" و"إعانة المتوجه المسكين عن طريق الفتح والتمكين"، وغيرها من رسائل كثيرة لأصحابه في الآداب والمواظب والحكم والطائف. وقد أخذ عن الشيخ زروق الكثير

محمد الفشتالي وأبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي (ت. ٥٨٤٩هـ)، ثم أبو العباس أحمد بن العجل الوزروالي (ت. ٥٨٥٦هـ) وأبو العباس أحمد بن سعيد المكناسي ت. ٥٨٧٠هـ وأبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الرحمن الأنفاسي (ت. ٥٨٦٠هـ)، ثم أبو عبد الله محمد الشهير بابن ملال (ت. ٥٨٥٦هـ) وأبو علي الحسن بن منديل المغيلي (ت. ٥٨٦٦هـ)، ثم أبو زكريا يحيى ت. ٥٨٧٠هـ وأبو العباس أحمد بن صالح الشهير بالفيلالي السجلماسي (ت. ٥٨٦٠هـ).^(٣٥) وأبو عبد الله أحمد بن عبد الله الزيتوني (ت. ٥٨٧٠هـ).^(٣٦) وعبد الله التجيبي ذ. الصغير (ت. ٥٨٨٧هـ) ثم أبو سالم إبراهيم التازي التسولي (ت. ٥٨٩٦هـ) ومحمد بن الحسن الصغير السراج ت. ٥٨٨٧هـ، ومحمد بن قاسم الرضاع (ت. ٥٨٩٠هـ) وأبو عبد الله محمد المشدالي (ت. ٥٨٦٦هـ)، وعبد الرحمن المجدولي وعبد الله الفخار وعبد الله المجاصي وعلي السطبي عيسى المواسي وأبو زيد عبد الرحمن الثعالبي (ت. ٥٨٧٥هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي (ت. ٥٨٩٩هـ) وأبو عبد الله بن يوسف الحسني السنوسي (ت. ٥٨٩٥هـ)، وهناك السخاوي ونور الدين السهوري وأم هاني العبدوسي (ت. ٥٨٦٠هـ).^(٣٧) ثم أحمد الشواطبي وشمس الدين الجوجري (ت. ٥٨٩٦هـ) وعبد الرحمن القباني ومحي الدين الدمشقي، ومد القرشي وأحمد بن حجر ت. ٥٨٥٢هـ وعبد الله بن محمد الموقت وأحمد الشاوي وأبو إسحاق التنوخي.^(٣٨)

وقد دَرَسَ شيخنا بزاوية يحيى العيدلي بمنطقة تمقرة ببلاد القبائل، ومن شيوخ الجزائر الذين أخذ نذكر عبد الرحمن الثعالبي وأحمد بن عبد الله الزواوي ثم إبراهيم التازي، وبالمشرق أخذ عن الشيخ النور السهوري والحافظ الدميري والحافظ السخاوي وأحمد الحضرمي وغيرهم كثير. وقد تولى شيخنا التدريس لمدة طويلة بزاوية يحيى العيدلي التي تخرج منها وكون أيضاً مدرسة ببجاية، وكان من أبرز تلامذته بها الشيخ أحمد بن يوسف الملياني وأحمد بن محمد الراشدي أحد أجداد الأمير عبد القادر، وغيرهم ممن انتشرت بواسطتهم الطريقة الزروقية الشاذلية.^(٣٩) وأما عن تلامذة الشيخ زروق فعددهم كبير كما يتبين من الخطاطة وكانوا بدور كبير في نشر طريقته بالغرب الإسلامي.

والشيخ زروق الصوفي الشاذلي الذي كان متحمساً لطريقته التي دعا إليها، قام بشرح أحزاب الإمام الشاذلي من أجل بعثها من جديد وتقريبها من عقول وقلوب الناس. وتظهر درجة ومكانة شيخنا

الشيخ زروق بمصراته منذ بداية القرن العاشر الهجري وملازمته عاملاً إضافياً محفزاً على الرحلة.^(٤٣) فقد ذكر "ابن الطيب الشرقي" في رحلته الحجازية الشهيرة ١١٣٩هـ، حول تمثلات القطب زروق في طريق المغاربة إلى الحج واصفاً رفيع مكانته في قلوبهم قائلاً: "وصلنا ضحى لضريح الإمام الشهير مولانا أحمد زروق أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وتفرق الناس في أفنيته ومسجده وأمامه وخلفه يبتهلون إلى الله تعالى ويسألونه بجاهه ويطلب كل واحد ما شاء قرب تجاهه، وبقينا ريثما فزنا بالزيارة في تلك المزاراة."^(٤٣) ومما أوردته أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن الناصر الدرعي التمكروتي في رحلة ثانية له للحج- من فقهاء القرن الثاني عشر الهجري وكبار شيوخ الزاوية الناصرية خلال هذه الفترة- أنه أصيب بمرض في بلاد مصر ولم يجد سوى التجاءه واستغاثته بالشيخ زروق دفين مصراته، وقال أنه لم يشعر براحته وشفاءه إلا عند زيارته لضريحه وإنزال رحاله بجواره.^(٤٤)

وحول رمزية ضريح الشيخ زروق الروحية ومقامه وموقعه في علاقته بالرحلات المغربية الحجية، ورد أن ركب الأميرة خاتمة بنت بكار زوج مولاي إسماعيل وكان برفقتها حفيدها سيدي محمد بن عبد الله، حط رحاله أيضاً بهذا المكان ١١٤٣هـ وهو في طريقه إلى بيت الله الحرام. ليأخذ الركب نصيب راحته قبل متابعة سيره وللتفرغ من أجل زيارة وتوسل ودعاء. وقد أفرغت خلوة قبر هذا القطب الصوفي المغربي البرنسي، فزارتها وأغدقت على أهل زاويته بما يتقبله الله منها بعدما استمعت لدروس أثناء مقامها، ووعياً بقيمة وصيت هذه المعلمة الصوفية المغربية بهذه الديار وبلاد المغرب والمشرق، ذكر العلامة عبد الهادي التازي أن من العقوق للتاريخ أن يصل المرء إلى ليبيا ولا يؤثر هذا الرجل بالزيارة والتذكر والترحم.^(٤٥)

سادساً: الشيخ زروق بين مستقر وضريح في مصراتة بليبيا وخلوة عبور في تازة بالمغرب الأقصى

ومما ورد من إشارات حول تنشئة الشيخ زروق، كونه أقبل على تعلم الخرازة وهو لا يزال طفلاً بفاس بسبب الفقر وقلّة العون. وأن والده الذي توفي وهو في أسبوعه الأول قد يكون ليس من أهل علم، وأن قبره يوجد بقرية تلوان بقبيلة البرانس شمال تازة. وأن على هذا القبر بناية أنيقة ملحقة بمسجد وإقامة للإمام وللزائرين، وهو ما يُعرف بالزاوية الزروقية

ومنهم "الشهاب القسطلاني" و"الشمس اللقاني" و"الخطاب الكبير"... وقيل عنه أنه من العشرة الأوائل من القرن العاشر.^(٣٧) وتجربة زروق في الإصلاح التي تمت خارج نطاق الدولة خلال مغرب العصر الوسيط، عبرت عن هويتها بأساليب متباينة وفق طبيعة ظروف البلاد والعباد. وكانت قد اتخذت طابعاً صوفياً خلال فترة المرينيين واحتلت مكان صدارة مع بداية الثامن الهجري، على يد الشيخ زروق وأبي الحسن الصغير وعبد الواحد بن عاشر وابن عباد والجزولي.^(٣٨) ولعل الزروقية كطريقة شاذلية إلى جانب الجزولية بالمغرب هي حركة إصلاحية دينية، وزروق الذي نُعت ب"محتسب العلماء والأولياء" كان ناقداً صوفياً متميزاً في عصره عن غيره. بتجربة مثيرة للجدل في تاريخ التصوف الإسلامي، لدرجة أنه يمكن مقارنته بدرجة الإسلام حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م).^(٣٩)

وجدير بالإشارة إلى أن الطريقة الشاذلية نسخت فكراً وسلوكاً ما سبقها من الطرق، فكانت بسيادة مطلقة في عالم التصوف بالمغرب منذ القرن السابع الهجري والى غاية القرن التاسع الهجري، تاريخ ظهور ما يعرف بالتجديد الجزولي والزروقي. ومعلوم أن الجزولية والزروقية المتفرعتين عن الشاذلية اقتسمتا السيادة بالمغرب في مجال التصوف آنذاك، ومعروف أن القرن العاشر الهجري هو الفترة التي تقوى فيها نشاط الجزوليين والزروقيين.^(٤٠) وبقدر ما كانت الزاوية الزروقية بإشعاع روحي كبير بليبيا بقدر ما كانت قبلة لمتصوفة وعلماء وافدين عليها من الغرب الإسلامي، فضلاً عما كان عليه الحجاج المغاربة منذ القرن العاشر الهجري من إقبال على زيارتها والإقامة بها للتبرك بالشيخ زروق والاستغاثة به.^(٤١)

خامساً: مكانة ضريح الشيخ زروق الروحية والرمزية في علاقته بالرحلات المغربية الحجازية

وفي علاقة بما كان عليه ضريح الشيخ زروق بمصراته من موقع رمزي روحي في ركب الحجاج المغاربة، من المهم الإشارة إلى أن القطر الليبي شكل معبراً أساسياً لكل متجه من المغرب إلى المشرق قاصداً بيت الله الحرام، ورغم تعدد نقاط انطلاق ركب الحاج المغربي إن من فاس أو مراكش أو سجلماسة، فكل الجمع كان يلتقي في منطقة الزوارات بليبيا. وفضلاً عن شوق وعزم أداء الفريضة والأخذ عن شيوخ العلم وحضور المجالس العلمية، باتت زيارة ضريح

بقدر ما كان بأصول اجتماعية ارتبطت بقبيلة البرانس التي لا تزال تستوطن مقدمة جبال الريف على مقربة من مدينة تازة المغربية، وهي قبيلة اشتهرت بارتباط علمائها بفاس بحكم مكانة ورمزية جامع القرويين الشهير. ولعل نشأة ومسار وسيرة هذا العلامة الصوفي المغربي، هي بإشارات هامة وردت في بعض مؤلفاته كـ "الكناش"، وقد عاش "زروق" خلال فترة حرجة من زمن مغرب العصر الوسيط، حيث أواخر دولة بني مرين وما حصل من تدهور وعدم استقرار سياسي، كذا ما تعرضت له البلاد من غزو ايبيري برتغالي وإسباني لعدد من المدن، ومن تهجير للمسلمين من الأندلس وطردهم من غرناطة إلى المغرب إلى أن سقطت الخلافة بها عام ٥٨٩٧-١٤٩٢م. أما اجتماعياً فقد عاش في زمن كثرت فيه الزوايا التي توجهت لنشر الفكر والمعرفة ومحاربة الفواحش والزندقة والبدع. وعليه، ازدهرت الحياة العلمية من فقه وأصول وتصوف، ولعل الزوايا هذه هي التي بلورت شخص "زروق" وغيره من علماء هذه الفترة. أما علمياً فقد طبع هذه الفترة ازدهار فكري كبير لعوامل عدة ومتداخلة، جمعت بين ما حضى به العلم والعلماء من تشجيع سلطاني، وما أنشأ من مدارس وخزانات وما كانت عليه فاس والقرويين من إشعاع. كل هذا وذلك شكل إطاراً سياسياً وثقافياً وعلمياً طبع بداية ومسار الشيخ زروق القطب الصوفي، الذي اختار التلاحق بين المغرب والمشرق والهجرة لبلورة منهجه وطريقته، فكان نموذج الصوفي المغربي المهاجر الذي اختار مصراة مستقراً لهجرته ولزاويته التي كانت بصيت واسع اشتهرت في قاموس التصوف الإسلامي بـ "الزروقية".

بحسب الرواية لا غير. والتي انتهت إلى أن البناية ربما أنشأت بعد وفاة الشيخ أحمد زروق واشتهاره.^(٤٦) ولعل عبد الله كُنُون الوحيد التي جاء بهذه القراءة معتمداً على ما أخبره به صديقه أحمد السمار أحد علماء شفشاون، وكان الشيخ زروق قد تحدث عن والده الذي توفي في أسبوعه الأول، ولم يذكر شيئاً عن سبب وفاته ولا مكان دفنه، ويبدو أنه من غير الدقيق أن تكون جدته من الفقيهاة الفاضلات وأن يكون والده غير ذلك. وعليه، فليس بالبعيد أن يكون من أهل علم وبشهرة بين أهله وأن وفاته المبكرة جعلته بدون أثر فكري يدل عليه، وما بناء قبره ومسجداً باسمه بقبيلة البرانس إلا دليل وتأكيد على ما تميز به وأثبتته ابنه بعده.^(٤٧) وكانت فاس خلال سنة ميلاد الشيخ زروق ٥٨٤٦ قد تعرضت لوباء رهيب عرف بوباء "عزونة"، ما قد يكون سبب وفاة كل من والده ووالدته وجده في وقت لم يتجاوز الأسبوعين، علماً أن الوباء نفسه أتى أيضاً على عدد من علماء وأعيان فاس خلال هذه الفترة.^(٤٨)

وحول ما قيل عن زاوية "تلوان" غير بعيد عن تازة شمالاً، وفي إطار تقارير وضعها رجال سياسة فرنسيين على عهد الحماية الفرنسية وخاصة منه عقوده الأولى، أشار ج. كولان إلى أن قبيلة البرانس تعتقد بشكل راسخ في أن هذه الزاوية شُيدت على قبر الشيخ أحمد زروق، وأنه ليس لأهلها أية فكرة ولا معلومة حول زاويته بمصراة الليبية. ليبقى السؤال معلقاً حول هذه الزاوية المفترضة وتاريخها، وحول من بنى هذه المنشأة هل الشيخ زروق نفسه أم أحد أتباعه من قبيلته، وهل سبق له أن قضى وقتاً بين أهله بقبيلته الأصل ومتى حصل ذلك. مع أهمية الإشارة إلى أن ما ورد في تقارير أجنبية كما بالنسبة لمقال جورج كولان ١٩٢٥ لا يقوم على سند قوي ولا مادة علمية دقيقة شافية، ليبقى المكان رغم كل هذا وذلك بقدسية روحية ويزوار ووقف من أراضي وأشجار وغيرها وبذاكرة شعبية جماعية لازالت قائمة.^(٤٩)

خاتمة

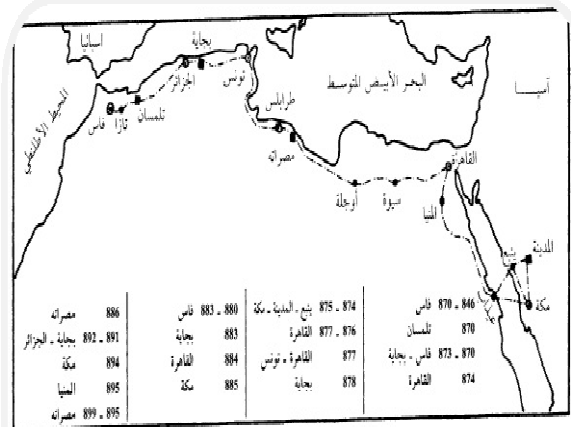
ارتبط الشيخ "زروق" بزمن المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، وتميز وتفرد بتأليف واسع في مجال الفقه والتصوف مستفيداً من تعدد مصادر أخذه وتباين شيوخه سواء بالمغرب أو المشرق خلال هذه الفترة. وبقدر نشأته بفاس التي كانت بأثر كبير في بلورة شخصه الذاتي والموضوعي الفكري والاجتماعي،

الملاحق

بعض من شعر الشيخ أحمد زروق حول هجرته وأثرها عليه

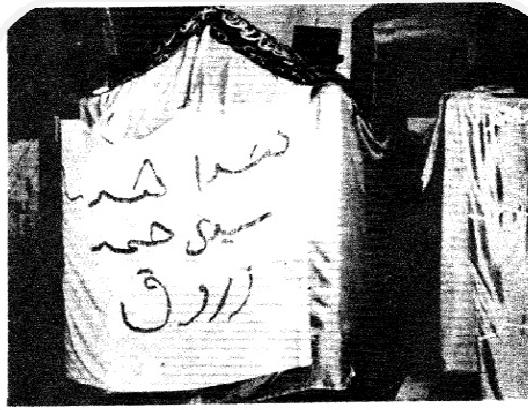
قد هجرت الخلق طرا بأسرهم
 وخلفت أصحابي وأهلي وجيرتي
 ووجهت وجهي للذي فطر السماء
 وعلفت قلبي بالمعالي تهمما
 وفقدت سيف العز في مجمع الوفا
 وملكت أرض الغرب طرا بأسرها
 فملكيتها بعض من كان عارفا
 فأرفع قدرا ثم أخفض رتبة
 وأعزل قوما ثم أولى سواهم
 وأجير مكسورا وأنهر خاسلا
 وأنهر جبارا وأدحض ظالما
 وأهملت أسرازا وأعطيت حكمة
 أنا لمريدي جامع لثناته
 وإن كنت في كرب وضيق ووحشة
 فكم كربة تجلي بمكنون عزنا

بعض من شعر الشيخ أحمد زروق حول الهجرة



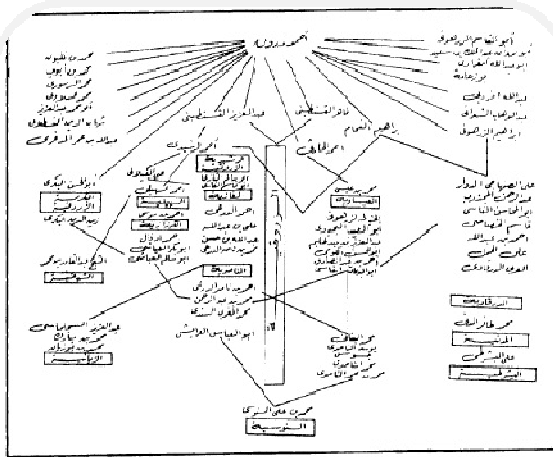
رحلات زروق وتغلاته مع تاريخها بالتقويم الهجري
 خشيوم علي هامي، أحمد زروق والنزوليات، دار الثقافة الإسلامية، ط 2002.

مسار رحلة الشيخ أحمد زروق
 من المغرب الى المشرق



قبر زروق بمصراته وبجائه قبر منصور الجبالي
 خشيوم علي هامي، أحمد زروق والنزوليات، دار الثقافة الإسلامية، ط 2002.

ضريح الشيخ أحمد زروق بمصراتة بليبيا



لوحة تبين تلامذة زروق والطرق التي كتب إليه (في المستطيلات)
 خشيوم علي هامي، أحمد زروق والنزوليات، دار الثقافة الإسلامية، ط 2002.

خطاطة لتلامذة الشيخ أحمد زروق



ضريح يعتقد أنه لأب الشيخ أحمد زروق
 بقبيلة البرانس بتازة المغرب

- (10) خشيم علي فهمي، أحمد زروق والزرقية، م س، ص 6٠-٦١.
- (11) نجمي عبد الله، بين زروق ولوثر...، م س، ص ٧٧.
- (12) نجمي عبد الله، بين زروق ولوثر...، م س، ص ٩٥.
- (13) القاسمي الحسني عبد المنعم، أعلام التصوف في الجزائر، م س، ص ٦٥.
- (14) كُتُون عبد الله، مشاهير رجال المغرب، جزء أول، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، طبعة أولى، ٢٠١٠، ص ٥٤٨-٥٤٩.
- (15) أحمد زروق أبو العباس، عدة المرید، تحقيق الصادق عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٩-١٠.
- (16) عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر، م س، ص ٦٤.
- (17) التليدي عبد الله بن عبد القادر، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان للنشر والتوزيع، طبعة رابعة، ٢٠٠٣، ص ١٤٧-١٤٨.
- (18) التليدي عبد الله بن عبد القادر، المطرب بمشاهير...، م س، ص ١٥١.
- (19) المكناسي أحمد ابن القاضي، جدوة الاقتباس...، م س، ص ١٢٩.
- (20) خشيم علي فهمي أحمد زروق والزرقية، م س، ص ٣٤.
- (21) ابن عسکر محمد، دوحه الناشر...، م س، ص ٤٨.
- (22) التميمي أحمد بابا، نيل الابتهاج...، م س، ص ١٣٠.
- (23) خشيم علي فهمي، احمد زروق والزرقية، م س، ص ٣٣-٣٤.
- (24) عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر، م س، ص ٦٣.
- (25) الذهبي نفيسة، تحقيق ودراسة، فهرس أبي سالم العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، منشورات كلية الآداب، الرباط، أطروحات ورسائل ٣٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٦، ص ١٤٣.
- (26) أحمدون عبد الخالق، أصول الطريقة الزرقية الشاذلية من خلال كتاب "الدرة الثمينة"، مجلة الإحياء، عدد ١٧، رابطة علماء المغرب، ٢٠٠١، ص ٢٣٤.
- (27) التميمي أحمد بابا، نيل الابتهاج...، م س، ص ١٣٢.
- (28) بوطروش محمد، من أعلام التصوف المغربي، أبو عبد الله الشطبي، مجلة الإحياء، عدد ١٥، رابطة علماء المغرب، ٢٠٠٦، ص ١٥٠-١٥١.
- (29) اهتم المتصوفة برموز الحروف لدرجة نشأة علم سمي بعلم الحروف المقرون بالأولياء (علم الأولياء)، وقد برر الصوفية اهتمامهم بكون علم الحروف هو الذي تظهر به الأعيان استناداً لنص قرآني صريح متعلق بالكلمة الإلهية (كن)، والتي لا تعدو أن تكون رمزاً على الإرادة الإلهية التي تخصص القدرة. وقد ذهب المتصوفة بعيداً في تأويل معاني الحروف، فوجدوا توازناً بينها وبين الطبائع الأربع

- (1) المكناسي أحمد بن القاضي، جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٢٩-١٣٠.
- (2) بن منصور عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، جزء خامس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٠، ص ٣٤.
- (3) بن منصور عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، جزء خامس، م س، ص ٨٥-٨٦.
- (4) خشيم علي فهمي، أحمد زروق والزرقية، المنار الإسلامي، مكتبة الفقه المالكي، دار المداد الإسلامي، طبعة ثالثة، ٢٠٠٢، ص ٣١.
- (5) التميمي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر كلية الدعوة الإسلامية، جزء أول، طبعة أولى، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩، ص ١٣٠-١٣١.
- (6) أحمد زروق، قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خبالي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، ٢٠٠٥، ص ٦.
- (7) القرطبي يحيى، المقدمة القرطبية، تحقيق أحمد زقور، دار التراث ناشرون، الجزائر، ط. أولى، ٢٠٠٥، ص ٣١-٣٢.
- (8) نجمي عبد الله، بين زروق ولوثر في الاصلاح الديني والعصور الحديثة، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٧، ص ٨٩-٩٠.
- (9) بعد طرد المسلمين واليهود من الأندلس توجهوا للمغرب، وع مرور الزمن تمكن اليهود من التغلغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً، وكان تسامح المسلمين عاملاً كبيراً في نفوذ اليهود الواضح انذاك، وكان لهم لدى سلاطين بني مرين حظوة كبيرة. ونظراً لأطماع بني وطاس من الوزراء والحجاب في السيطرة على الحكم والإطاحة بالسلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، أقسم هذا الأخير على ألا يعين أحدًا من المسلمين وزيراً له. فعهد لتعيين يهوديين هما "هارون" و"شاول" مساعدين له، وأطلق يديهما في الحكم وتدبير أمور الدولة وخاصة ما يتعلق بجمع المال والضرائب وهو ما تسبب في غضب المجتمع. كتاب "الكناش"، لأحمد زروق، تحقيق علي فهمي خشيم، المكتبة الزرقية، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٨٠.
- (10) الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، جزء رابع، ١٩٩٧، ص ٩٩-١٠٠.
- (11) كور أغست، دولة بني وطاس، م س، ص ٤٤-٤٥.
- (12) الشفشاوني محمد بن عسکر الحسني، دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، أوفسيط دار المغرب، الرباط، طبعة ثانية، ١٩٧٧، ص ٥٣.
- (13) خشيم علي فهمي، أحمد زروق والزرقية، م س، ص ٤٠-٤١.
- (14) بن شقرون محمد، مظاهر الثقافة المغربية، دار الثقافة، المغرب، طبعة أولى، ١٩٧٠، ص ١٣١.

- والأفلاك السبعة والرسول وتصورها على شاكلة علم الباطن. يمكن في هذا الإطار مراجعة كتاب حسن جلاب" الآثار الأدبية لصوفية مراكش"، ١٩٩٤.
- (٣٥) نجمي عبد الله، **بين زروق ولوثر...**، م س، ص ٨٧.
- (٣٦) خشيم علي فهمي، **كتاب الاعانة لأحمد زروق**، تحقيق، دار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٩، ص ٣.
- (٣٧) الحزنيكي محمد بن أحمد، **طبقات الحزنيكي**، جزء أول، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٢١.
- (٣٨) القبلي محمد، **حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط**، منشورات الفنك، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص ٣٣.
- (٣٩) نجمي عبد الله، **بين زروق ولوثر...**، م س، ص ٧٩-٨٠.
- (٤٠) الوارث احمد، **قراءة في كتاب التصوف والبدعة بالمغرب**، طائفة العكاكزة لعبد الله نجمي، مجلة المناهل، نشر وزارة الثقافة، الرباط، عدد ٦٤-٦٥، السنة ٢٠١١، ص ٥٨٢-٥٨٣.
- (٤١) شاهدي الحسن، **مشاهدات ابن عبد السلام الناصري في ليبيا من خلال رحلته الصغرى**، مجلة المناهل، عدد ٨٨، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل، الرباط، ٢٠١١، ص ١٤٨.
- (٤٢) شاهدي الحسن، **مشاهدات ابن عبد السلام الناصري ...**، م س، ص ١٣٤.
- (٤٣) الفاسي الشرقي أبو عبد الله بن الطيب، **الرحلة الحجازية**، م س، ص ٥٥٧.
- (٤٤) شاهدي الحسن، **مشاهدات ابن عبد السلام الناصري**، م س، ص ١٣٧.
- (٤٥) التازي عبد الهادي، **أمير مغربي في طرابلس ١١٤٣-١٧٣١م، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي**، بدون طبعة، بدون سنة، ص ٥٨.
- (٤٦) كُتون عبد الله، **مشاهير رجال المغرب**، جزء أول، م س، ص ٥٤٢.
- (٤٧) خشيم علي فهمي، **الكناش**، المكتبة الزروقية، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، ١٩٨٠، ص ٤٢-٤٣.
- (٤٨) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، جزء رابع، م س، ص ١٠١.
- (٤٩) خشيم علي فهمي، **أحمد زروق والزروقية**، م س، ص ١٨٥-١٨٦.